إذن : فالخير موجود ينتظر القَدَر ليظهر لنا وننتفع به .

ثم يقول تبارك وتعالى :

﴿ وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ۝٧ ﴾

الحق ـ سبحانه وتعالى ـ حينما يطلب من رسوله أن يذكر يريد منه أن يُذكِّر تذكيراً مرتبطاً بنيته ، لا ليقطع العَتْب عن نفسه ، فالمسألة ليست جهراً بالتذكير .

وإذا كان الله تعالى يقول لرسوله ﷺ : إنني سأحرس سرك كما أحرس علانيتك ، وأن الجهر عندى مثل السر ، بل وأخفى من السر ؛ وهو ﷺ مؤتمن على الرسالة فإنه تعالى يقول أيضاً لأمته : إياكم أن تقولوا كلاماً ظاهره فيه الرحمة ، ونيتكم غير مستقرة عليه ؛ لأن الله كما يعلم الجهر يعلم السر ، وما هو أخفى من السر .

وتكلمنا عن الجهر ، وهو أن تُسمع مَنْ يريد أن يسمع ، والسر : أن تخصَّ واحداً بأن تضع فى أذنه كلاماً لا تحب أن يشيع عند الناس ، وتهمس فى أذنه بأنك المأمون على هذا الكلام ، وأنت ترتاح نفسياً حينما تُلقِى بسرِّك إلى مَنْ تثق فيه ، وتأمن ألاَّ يذيعه ، وهناك فى حياة كل منا أمور تضيق النفس بها . فلا بُدَّ لك أن تُنفِّسَ عن نفسك ، كما قال الشاعر :

وَلاَ بُدَّ مِنْ شَكْوَى إِلَى ذِى مُرُوءَةٍ ... يوَاسِيكَ أَوْ يُسلِّيكَ أَوْ يتوجَّعُ

فأنت ـ إذن ـ فى حاجة لمَنْ يسمع منك ليريحك ، ويُنفِّس عنك ، ولا يفضحك بما أسررْتَ إليه .

ومعنى ﴿ وَأَخْفَى ۝٧ ﴾ [طه] أى : أخْفى من السر ، فإنْ كان سرُّك قد خرج من فمك إلى أذن سامعك ، فهناك ما هو أخْفَى من السر ، أى : ما احتفظتَ به لنفسك ولم تتفوَّه به لأحد .

لذلك يقول تعالى : ﴿ وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ۝١٣ ﴾ [الملك] أى : مكنوناتها قبل أن تصير كلاماً .

وقال أيضاً : ﴿ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ .. ۝١٦ ﴾ [ق] فوسوسة النفس ، وذات الصدور هى الأخْفَى من السر ، فلدينا - إذن - جَهْر ، وسرٌّ ، وأخفى من السر ، لكن بعض العارفين يقول : وهناك فى علم الله ما هو أخْفى من الأخفى ، فما هو ؟ يقول: إنه تعالى يعلم ما سيكون فى النفس قبل أن يكون .

وبعد ذلك جاء الحق سبحانه بالكلمة التى بعث عليها الرسل جميعاً :

﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۝٨ ﴾

هذه الكلمة (لا إله إلا هو) هى قمة العقيدة ، وقال عنها النبى ﷺ : « خير ما قلته أنا والنبيون من قبلى : لا إله إلا الله »[1] .

وما دام لا إله إلا الله ، فهو سبحانه المؤْتَمن عليك ، فليس هناك إله آخر يُعقِّب عليه ، فاعمل لوجهه يكْفك كل الأوجه وتريح نفسك أن تتنازعك قوى شتى ومختلفة ، ويُغنيك عن كل غنى .

وحينما دخل أعرابى على رسول الله ﷺ وهو يتكلم مع أبى بكر -

(١) أخرجه الترمذى فى سننه (٣٥٨٥) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص قال : « خير الدعاء دعاء يوم عرفة .. » الحديث بتمامه . قال الترمذى : « هذا حديث غريب من هذا الوجه » .

رضى الله عنه ـ لم يفهم من كلامهما شيئاً ، فقال : يا رسول الله أنا لا أُحسن دندنتك ولا دندنة أبى بكر ، أنا لا أعرف إلا : لا إله إلا الله محمد رسول الله . فقال ﷺ : « حَوْلَها ندندن يا أخا العرب »[1]

فهى الأساس والمركز الذى يدور حوله الإسلام .

وكلمة (اللهُ) علَم على واجب الوجود بكل صفات الكمال له ، فهو الله الموجود ، الله القادر ، الله العالم ، الله الحيّ ، الله المحيى ، الله الضار . فكل هذه صفات له سبحانه ، لكن هذه الصفات لما بلغتْ حَدَّ الكمال فيه تعالى أصبحتْ كالاسم العلَم ، بحيث إذا أُطلِق الخالق لا ينصرف إلا له ، والرازق لا ينصرف إلا له .

وقد يشترك الخلْق مع الخالق فى بعض الصفات ، كما فى قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُوا الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُم .. ﴿٨﴾ ﴾ [النساء]

فالإنسان أيضاً يرزق ، لكن رزقه من باطن رزق الله ، فهو سبحانه الرازق الأعلى ، ومن بَحْره يغترف الجميع .

وكما فى قوله تعالى : ﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ [المؤمنون] وقال تعالى : ﴿ وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا .. ﴿١٧﴾ ﴾ [العنكبوت]

ومعنى ذلك أن هناك خالقين غيره سبحانه ، ومعنى الخَلْق :

---

(١) أخرج أحمد فى مسنده (٣/٤٧٤) وابن ماجه فى سننه (٣٨٤٧) وأبو داود فى سننه (٧٩٢) عن بعض أصحاب النبى ﷺ قال قال النبى ﷺ لرجل : كيف تقول فى الصلاة ؟ قال : أتشهد . ثم أقول : اللهم إنى أسألك الجنة وأعوذ بك من النار ، أما إنى لا أحسن دندنتك ولا دندنة معاذ . فقال النبى ﷺ : « حولها ندندن » .

الإيجاد من عدم ، فالذى جاء بالرمل وصنع منه كوباً فهو خالق للكوب ، فأنت أوجدتَ شيئاً من عدم ، والله تعالى أوجد شيئاً من عدم ، ولكنك أوجدت من موجود الله قبل أن توجد أنتَ ، فهو - إذن - أحسن الخالقين فى حين لم يضنّ عليك ربك بأنْ ينصفك ويسميك خالقاً . وهذا يوجب عليك أنْ تنصفه سبحانه وتقول ﴿ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ [المؤمنون]

وأيضاً ، فإن الله تعالى إذا احترم إيجادك لمعدوم فسمَّاك خالقاً له ، ولم يَضنّ عليك فأعطاك صفة من صفاته إنما أخبرك أنه أحسن الخالقين ؛ لأنك تُوجد معدوماً يظل على إيجادك ويجمد على هذه الحالة ، لكن الخالق - سبحانه وتعالى - يُوجد معدوماً ويمنحه الحياة ، ويجعله يلتقى بمثله ويُنجب ، فهل يستطيع الإنسان الذى أوجد كوباً أن يجعل منه ذكراً وأنثى ينتجان لنا الأكواب ؟! وهل يكبر الكوب الصغير ، أو يتألم إنْ كُسِر مثلاً ؟!.

إذن : فالخالق سبحانه هو أحسن الخالقين ، وكذلك هو خير الرازقين ، وخَيْر الوارثين ، وخَيْر الماكرين .

وقوله تعالى : ﴿ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ﴿٨﴾ ﴾ [طه] الحُسْنى : صيغة تفضيل للمؤنث مثل : كُبْرى ، تقابل « أحسن » للمذكر . إذن : فهناك أسماء حسنة هى أسماء الخَلْق ، أما أسماء الله فحسنى ؛ لأنها بلغتْ القمة فى الكمال ، ولأن الأسماء والصفات التى تنطبق عليها موجودة فى الخالق الأعلى سبحانه ، فحين تقول فى أسماء الله تعالى (الرازق) فهى الصفة الحُسْنى لا الحسنة .

لذلك لما أراد رجل يُدْعى (سعد) أن يشاور أباه فى خطبة ابنته حسنى وقد تقدم لها رجلان : حسن وأحسن . فقال له أبوه (فحسنى يا سعد للأحسن) .

وقال تعالى : ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ .. (٢٦)﴾ [يونس] فلم يقل : حسنة ، لأنهم أحسنوا فاستحقوا الحُسْنى بل وزيادة .

وأسماء الله تعالى هى فى الحقيقة صفات ، إلا أنها لما أُطلقت على الحق - تبارك وتعالى - أصبحتْ أسماء . ولَكَ أنْ تُسمِّى فتاة زنجية (قمر) وتسمى قزْماً (الطويل) لأن الاسم إذا أُطلق علَماً على الغير انحلَّ عن معناه الأصلى ولزم العلَمية فقط ، لكن أسماء الله بقيتْ على معناها الأصلى حتى بعد أنْ أصبحتْ علَماً على الله تعالى ، فهى - إذن - أسماء حُسْنى .

وبعد أن تكلَّم الحق - تبارك وتعالى - عن الرسول الخاتم صاحب المنهج الخاتم - فليس بعده نبى وليس بعد منهجه منهج - أراد سبحانه أنْ يُسلِّيه تسلية تُبيِّن مركزه فى موكب الرسالات ، وأنْ يعطيه نموذجاً لمن سبقوه من الرسل ، وكيف أن كل رسول تعب على قَدْر رسالته ، فإنْ كانت الرسالات السابقة محدودة الزمان محدودة المكان ، ومع ذلك تعب أصحابها فى سبيلها ، فما بالك برسول جاء لكل الزمان ولكل المكان ؟ لا بُدَّ أنه سيواجه من المتاعب مثل هؤلاء جميعاً .

إذن : فوطِّن نفسك يا محمد على أنك ستلْقَى من المتاعب والصعاب ما يناسب عظمتك فى الرسالة وخاتميتك للأنبياء ، وامتداد رسالتك فى

الزمان إلى أنْ تقومَ الساعة ، وفى المكان إلى ما اتسعتْ الأرض .

لذلك اختار الحق - تبارك وتعالى - لرسوله ﷺ نبياً من أولى العزم ؛ لأنه جاء لبنى إسرائيل وجاء لفرعون ، وقد كان بنو إسرائيل قوماً ماديين ، أما فرعون فقد ادَّعى الألوهية ، اختار موسى - عليه السلام - ليقصّ على رسول الله قصته ويُسلِّيه فيما يواجهه من متاعب الدعوة ، كما قال تعالى : ﴿ وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَـٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ (١٢٠) ﴾ [هود]

وقال تعالى : ﴿ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا[1] مِّنَ الرُّسُلِ .. (٩) ﴾ [الأحقاف]

فأنت يا محمد كغيرك من الرسل ، وقد وجدوا من المشقة على قَدْر رسالاتهم ، وسوف تجد أنت أيضاً من المشقة على قَدْر رسالتك . ونضرب لذلك مثلاً بالتلميذ الذى يكتفى بالإعدادية وآخر بالثانوية أو الجامعة ، وآخر يسعى للدكتوراة ، فلا شكَّ أن كلاً منهم يبذل من الجهد على قَدْر مهمته .

لذلك يقول تعالى :

﴿ وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ[2] (٩) ﴾

إذا جاء الاستفهام من الله تعالى فاعلم أنه استفهام على غير حقيقته ، فلا يُرَاد هنا طلب الفهم ، لأن أخبار محمد تأتيه من ربه -

(١) أى : ما كنت غريباً ولا عجيباً ولا كنت على غير مثال سابق ، فأنا مثل الرسل السابقين . [القاموس القويم ١/٥٧] .

(٢) قال القرطبى فى تفسيره (٦/٤٣٤٣) : « قال أهل المعانى : هو استفهام وإثبات وإيجاب معناه : أليس قد أتاك ؟ وقيل : معناه قد أتاك . قاله ابن عباس » .

عز وجل ـ فكيف يستفهم منه . إنما المراد بالاستفهام هنا التشويق لما سيأتى كما تقول لصاحبك : هل بلغك ما حدث بالأمس ؟ فيُشوِّقه لسماع ما حدث .

والحديث : أى الخبر عنه سواء أكان بالوحى ، أو بغير الوحى ، كأن حكيت له قصة موسى عليه السلام .. فهل بلغتْك هذه القصة ؟ اسمعها الآن منى :

﴿ إِذْ رَءَا نَارًا(١) فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ(٢) أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾ ﴾

نلحظ هنا أن السياق لم يذكر قصة موسى من أولها لما قال تعالى : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ .. ﴿٧﴾ ﴾ [القصص] ثم خروجه من المدينة خائفاً وذهابه إلى شعيب .. الخ ، وإنما قصد إلى مَنَاط الأمر ، وهى الرسالة مباشرة .

وقوله : ﴿ إِنِّى آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّى آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾ ﴾ [طه] آنست : أى أبصرت ، وشعرت بشىء يستأنس به ويُفرَح به ويُطمأن إليه ، ومقابلها (توجست) للشر الذى يخاف منه كما فى قوله : ﴿ فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ ﴾ [طه]

---

(١) قال ابن عباس وغيره : هذا حين قضى الأجل وسار بأهله وهو مقبل من مدين يريد مصر ، وكان قد أخطأ الطريق . وقال وهب بن منبه : استأذن موسى شعيباً فى الرجوع إلى والدته فأذن له فخرج بأهله بغنمه ، وولد له فى الطريق غلام فى ليلة شاتية باردة مثلجة ، وقد حاد عن الطريق وتفرقت ماشيته ، فقدح موسى النار فلم تور المقدحة شيئاً إذ بصر بنار من بعيد على يسار الطريق . قاله القرطبى فى تفسيره (٦/٤٣٤٣) .
(٢) القبس : الشعلة من النار [اللسان ـ مادة : قبس] .

(لَعلِّى) رجاء أنْ أجدَ فيهـا القبس ، وهو شعلة النار التى تُتَّخذ من النار إنْ أدركت النار وهى ذات لَهَب ، فتـأخذ منها عوداً مشـتعلاً مثل الشمعة .

وفى سياق آخر قال : (جذوة)[1] وهى النار حينما ينطفىء لهبها ويبـقى منها جـمرات يمكن أن تـشعل منهـا النار . وفى موضـع آخـر قال : ﴿ سَآتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ .. ۝ ⑦ ﴾ [النمل]

وهذه كلها صور متعددة ، وحالات للـنار ، ليس فيها تعارض كما يحلو للبـعض أن يقـول ، فمـوسى عليه الـسلام حـينما قـال ﴿ لَّعَلِّى آتِيكُم .. ۝ ⑩ ﴾ [طه] يرجو أن يجـد القبس ، لكن لا يـدرى حال النار عندما يأتيها ، أتكون قَبَساً أم جَذوة ؟

وقد طلب موسى ـ عليه السـلام ـ القَبَس لأهله ؛ لأنهم كانوا فى ليلة مطيرة شـديدة البرد ، وهم غربـاء لا يعلمون شيـئاً عن المكان ، فهو غير مطروق لهم فيسيـرون لا يعرفون لهم اتجاهاً ، فماذا يفعل موسى عليه السلام ومعه زوجته وولده الصغير وخادمه ؟

إنهم فى أمسِّ الحاجـة للنار ، إما للتدفئة فـى هذا الجو القارس ، وإما لطلب هداية الـطريق ، لذلك قال : ﴿ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى ۝ ⑩ ﴾ [طه] أى : هادياً يدلّنا على الطريق .

وفى موضـع آخر قال : ﴿ لَّعَلِّى آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ .. ۝ ㉙ ﴾ [القصص]

لذلك لما أبصر موسى عليه السلام النار أسرع إليها بعد أنْ طمأن أهله : ﴿ امْكُثُوا إِنِّى آنَسْتُ نَاراً .. ۝ ⑩ ﴾ [طه]

---

(١) وذلك فى قوله : ﴿ لَّعَلِّى آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ㉙ ﴾ [القصص] .

وهذه المسألة من قصة موسى كانت مثارَ تشكيك من خصوم الإسلام ، حيث وجدوا سياقات مختلفة لقصة واحدة ، فمرة يقول : ﴿امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُم .. ⑩﴾ [طه] ، وفي موضع آخر يقول : ﴿لَعَلِّي آتِيكُم مِنْهَا بِخَبَرٍ .. ㉙﴾ [القصص]

ومرة يقول : (قَبَس) وأخرى يقول (بشِهَاب قَبَسٍ) ومرة (بجَذْوَة) ومرة يقول : ﴿أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى ⑩﴾ [طه] ومرة يقول : ﴿لَعَلِّي آتِيكُم مِنْهَا بِخَبَرٍ .. ㉙﴾ [القصص]

والمتأمل في الموقف الذي يعيشه الآن موسى وامرأته وولده الصغير وخادمه في هذا المكان المنقطع وقد اكفهرَّ عليهم الجو ، يجد اختلاف السياق هنا أمراً طبيعياً ، فكلٌّ منهم يستقبل الخبر من موسى بشكل خاص ، فلما رأى النار وأخبرهم بها أراد أنْ يُطمئنهم فقال : ﴿سَآتِيكُم .. ⑦﴾ [النمل] فلما رآهم مُتعلِّقين به يقولون : لا تتركنا في هذا المكان قال : ﴿امْكُثُوا .. ⑩﴾ [طه] وربما قال هذه لزوجه وولده وقال هذه لخادمه . فلا بُدَّ أنهم راجعوه . فاختلفت الأقوال حول الموقف الواحد .

كذلك في قوله : قَبَسٍ أو جَذْوة لأنه حين قال : ﴿لَعَلِّي آتِيكُم .. ⑩﴾ [طه] يرجو أن يجد هناك القبس ، لكن لعله يذهب فيجد النار جَذْوة . وفي مرة أخرى يجزم فيقول : ﴿سَآتِيكُم .. ⑦﴾ [النمل]

إذن : هي لقطات مختلفة تُكوِّن نسيج القصة الكاملة ، وتعددتْ الكلمات لأن الموقف قابلٌ للمراجعة ، ولا ينتهي بكلمة واحدة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى ۝١١ ﴾

يقال : إن موسى عليه السلام لما أتاها وجد نوراً يتلألأ فى شجرة ، لكن لا خضرةُ الشجرة تؤثر فى النور فتبهته ، ولا النورُ يطغى على خضرة الشجرة فيمنع عنها الخضرة ، فهى - إذن - مسألة عجيبة لا يقدر عليها إلا الله .

فكانت هذه النار هى أول الإيناس لموسى فى هذا المكان الموحش ، وكأن هذا المنظر العجيب الذى رآه إعداد إلهى لموسى حتى يتلقَّى عن ربه ، فليستْ المسألة مجرد منظر طبيعى .

وقوله تعالى : ﴿ نُودِيَ يَا مُوسَى .. ۝١١ ﴾ [طه] أى : فى هذه الدهشة ﴿ نُودِيَ .. ۝١١ ﴾ [طه] فالذى يناديه يعرفه تماماً ؛ لذلك ناداه باسمه ﴿ يَا مُوسَى .. ۝١١ ﴾ [طه] وما دام الأمر كذلك فطَمع الخير فيه موجود ، وبدأ موسى يطمئن إلى مصدر النداء ، ويأنَسُ به ، ويبحث عن مصدر هذا الصوت ، ولا يعرف من أين هو ؛ لذلك اعتبرها مسألة عجيبة مثل منظر الشجرة التى ينبعث منها النور .

﴿ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ(١) إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ۝١٢ ﴾

(١) اختلف العلماء فى السبب الذى من أجله أمر بخلع النعلين :
- لأنها نجسة ، إذ هى من جلد حمار ميت . قاله كعب وعكرمة وقتادة .
- لينال بركة الوادى المقدس ، وتمس قدماه تربة الوادى . قاله على بن أبى طالب والحسن وابن جريج .
- للخشوع والتواضع عند مناجاة الله .
- إعظاماً لذلك الموضع .
- لتفريغ قلبه من أمر الأهل والولد . وقد يعبر عن الأهل بالنعل ، وكذلك هو فى تعبير الرؤى : من رأى أنه لابس نعلين فإنه يتزوج . [تفسير القرطبى ٦/٤٣٤٥] .

فساعة أنْ كلَّمه ربه : ﴿ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ .. (١٢) ﴾ [طه] أزال ما في نفسه من العجب والدهشة لما رآه وسمعه ، وعلم أنها من الله تعالى فاطمأنَّ واستبشر أنْ يرى عجائب أخرى .

ونلحظ في قوله تعالى : ﴿ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ .. (١٢) ﴾ [طه] أن الحق - تبارك وتعالى - حينما يتحدَّث عن ذاته تعالى يتحدث بضمير المفرد ﴿ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ .. (١٢) ﴾ [طه] وحينما يتحدث عن فعْله يتحدث بصيغة الجمع ، كما في قوله عز وجل : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ (١) ﴾ [القدر] ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ .. (٩) ﴾ [الحجر] ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا .. (٤٠) ﴾ [مريم]

فلماذا تكلَّم عن الفعل بصيغة الجمع ، في حين يدعونا إلى توحيده وعدم الإشراك به ؟ قالوا : الكلام عن ذاته تعالى لا بُدَّ فيه من التوحيد ، كما في : ﴿ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلَـٰهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي (١٤) ﴾ [طه]

لكن في الفعل يتكلم بصيغة الجمع ؛ لأن الفعل يحتاج إلى صفات متعددة وإمكانات شتَّى ، يحتاج إلى إرادة تريده ، وقدرة على تنفيذه وإمكانات وعلم وحكمة .

إذن : كل صفات الحق تتكاتف في الفعل ؛ لذلك جاء الحديث عنه بصيغة الجمع ، ويقولون في النون في قوله : ﴿ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ .. (٩) ﴾ [الحجر] ﴿ نَرِثُ الأَرْضَ .. (٤٠) ﴾ [مريم] أنها : نون التعظيم .

وقد جاء الخطاب لموسى بلفظ الربوبية ﴿ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ .. (١٢) ﴾ [طه] لإيناس موسى ؛ لأن الربوبية عطاء ، فخطابه (بربك) أي الذي يتولَّى رعايتك وتربيتك ، وقد خلقك من عَدَم ، وأمدك من عُدم ،

ولم يقُلْ : إني أنا الله ؛ لأن الألوهيـة مطلوبها تكليف وعـبادة وتقيـيد للحركة بافعل كذا ولا تفعل كذا .

وقوله تـعالى : ﴿ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ .. ﴿١٢﴾ ﴾ [طه] أي : ربك أنت بالذات لا الرب المطلق ؛ لأن الرسل مختلفون عن الخَلْق جميعاً ، فلهم تربية مخصوصة ، كما قال تعالى : ﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي ﴿٣٩﴾ ﴾ [طه] وقال : ﴿ وَاصْطَنَعْتُكَ[1] لِنَفْسِي ﴿٤١﴾ ﴾ [طه]

إذن : فالحق تبارك وتعالى يُربِّى الرسل تربيةً تناسب المهمة التي سيقومون بها .

وقوله تعالى : ﴿ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ .. ﴿١٢﴾ ﴾ [طه] هذا أول أمر ، وخَلْع النعل للتـواضـع وإظهار المـهـابة ؛ ولأن المكان مُقدَّس والعلة ﴿ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ ﴾[طه] فاخلع نعليك حتى لا تفصل جسمك عن تربة هذا المكان المقدس الطاهر ، ولا تجعل نَعْليك يحولان بينك وبين مباشرة ذرات هذا التراب .

ومن ذلك مـا نراه في مـدينة رسـول الله من أناس يمشـون بهـا حـافيي الأقـدام ، يقـول أحدهم : لَعلِّي أصـادف بقدمي موضع قـدم رسول الله ﷺ .

وقـوله: ﴿ طُوًى ﴿١٢﴾ ﴾ [طه] اسم الوادي[2] وهذا كـلام عــام جـاء تحديده في موضـع آخر ، فـقال سبحانه : ﴿ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِن شَاطِئِ

(١) أي : علَّمتك وربيـتك وأنعمت عليك لتكون صنيـعة لي تخدمني وتؤدي الـرسالة التي أكلفك إياها واخترتك لها . [القاموس القويم ١/ ٣٨٤] .

(٢) قاله ابن عبـاس ومجاهد وغيرهما . وقـال الضحاك : هو واد عميق مسـتدير مثل الطوى . وقال الحسن : ثنيت فيه البركة والتقـديس مرتين . وذكر المهدوي عن ابن عباس : أنه قيل له « طوى » لأن مـوسى طواه بالليل ، إذ مرَّ به فـارتفـع إلى أعلى الوادي . فكأنه قـال : « إنك بالواد المقدس » الذي طويـته طوى ، أي تجاوزته فطويته بسيـرك . [ذكره القرطبي في تفسـيره ٦/ ٤٣٤٧] . قال ابن كـثير في تفـسيره (٣/ ١٤٤) : « الأول أصح كـقوله ﴿ إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ ﴾ [النازعات] » .

الْوَادِ الأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ .. (٣٠)﴾ [القصص]

والبعض يرى فى الآية تكراراً ، وليست الآية كذلك ، إنما هو تأسيس لكلام جديد يُوضِّح ويُحدِّد مكان الوادى المقدس طوى أين هو ، فإنْ قلتَ: أين طوى ؟ يقول لك : فى الواد الأيمن ، لكن الواد الأيمن نفسه طويل ، فأين منه هذا المكان ؟ يقول لك : عند البقعة المباركة من الشجرة(1) .

إذن : فالآية الثانية تحدد لك المكان ، كما تقول أنت : أسكن فى حى كذا ، وفى شارع كذا ، فى رقم كذا .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ (١٣)﴾

أى : وإنْ كنتُ رباً لك ورباً للكافرين فسوف أزيدك خصوصية لك ﴿وَأَنَا اخْتَرْتُكَ (١٣)﴾ أى : للرسالة ، والله أعلم حيث يجعل رسالته .

لذلك لم نزل القرآن على سيدنا رسول الله ﷺ ما اعترض كفار مكة على القرآن ، ولم يجدوا فيه عيباً فيما يدعو إليه من أخلاق فاضلة ومُثُل عليا ، ولم يجدوا فيه مَأْخذاً فى أسلوبه ، وهم أمة ألفتْ الأسلوب الجيد ، وعَشقَتْ آذانها فصاحة الكلام ، فتوجهوا بنقدهم إلى رسول الله فقالوا : ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَـٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ(2) عَظِيمٍ (٣١)﴾ [الزخرف]

---

(1) قال ابن كثير فى تفسيره (٣/٣٨٨) : « هذا مما يرشد إلى أن موسى قصد النار إلى جهة القبلة ، والجبل الغربى عن يمينه ، والنار وجدها تضطرم فى شجرة خضراء فى لحف الجبل مما يلى الوادى فوقف باهتاً فى أمرها » .

(2) المقصود بالقريتين مكة والطائف . وقد اختلفوا فى تعيين الرجل المقصود من كل قرية لينزل عليه القرآن . ذكر غير واحد منهم قتادة أنهم أرادوا بذلك الوليد بن المغيرة وعروة ابن مسعود الثقفى . وعن مجاهد : أنهم يعنون عتبة بن ربيعة . نقله ابن كثير فى تفسيره (٤/١٢٧) ، ثم قال : « والظاهر أن مرادهم رجل كبير من أى البلدتين كان » .

فكلُّ اعـتـراضـهم أنْ ينـزلَ القرآن علـى محـمـد بالذات ؛ لذلك رَدَّ عليـهم القرآن بمـا يكشف غبـاءهم فى هذه المســألة ، فـقال : ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [الزخرف] كـيف ونحن قد قـسـمنا بينهم معيشتهم الأدْنى :﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ ﴿٣٢﴾ ﴾ [الزخرف]

وهم يريدون أنْ يقسموا رحمـة الله فيقولون : نزل هذا على هذا ، وهذا على هذا ؟

ثم يقول تعالى : ﴿ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ ﴿١٣﴾ ﴾ [طه] مادة : سمع . منهـا : سمع ، واستـمع وتسمَّـع . قولنا : سـمع أى مصادفـة وأنت تسيـر فى الطريق تسمع كلامـاً كثيـراً . منه ما يُهمك ومـا لا يهمك ، فليس على الأذن حجاب يمـنع السمع كالجفْنِ للعين ، مـثلاً حين ترى منظراً لا تحبه .

إذن : أنت تسمع كل ما يصل إلى أذنك ، فليس لك فيه خيار .

إنما : استمع . أنْ تتكلَّف السـماع ، والمتكلم حُر فى أنْ يتكلم أو لا يتكلم .

وتسمَّع . أىْ : تكلَّف أشدَّ تكلّفاً لكى يسمع .

لذلك ؛ فالنبى ﷺ حين يـخبر أنه ستعُم بلوى الغنَاء ، وسـتنتشر الأجهزة التى ستشيع هذه البلوى ، وتصـبها فى كل الآذان رَغْماً عنها يقول : « مَنْ تسمَّع إلى قَيْنَة[1] صب الآنك فى أذنيه » .

---

(١) القينة : الأمـة المغنيـة ، تكون من التزيُّن لأنهـا كانت تزين . قـال أبو منصور : إنمـا قيل للمغنية قينة إذا كان الغناء صناعة لها ، وذلك من عمل الإماء دون الحرائر . [لسان العرب ـ مادة : قين] .

أى : تكلَّف أنْ يسمع ، وتعمَّد أن يوجه جهاز الراديو أو التليفزيون إلى هذا الغناء ، ولم يقُل : سمع ، وإلاَّ فالجميع يناله من هذا الشر رَغْماً عنه .

وهنا قال تعالى : (**فَاسْتَمِعْ**) ولم يقُلْ : تسمَّع : لأنه لا يقترح على الله تعالى أنْ يتكلم ، ومعنى : استمع أى : جَنِّد كلَّ جوارحك ، وهيىء كُلَّ حواسِّك لأن تسمع ، فإنْ كانت الأذن للسمع ، فهناك حواسّ أخرى يمكن أنْ تشغلها عن الانتباه ، فالعين تبصر ، والأنف يشمّ ، واللسان يتكلم .

فعليك أنْ تُجنِّد كل الحواسّ لكى تسمع ، وتستحضر قلبك لتعى ما تسمعه ، وتنفذ ما طلب منك ؛ لذلك حين تخاطب صاحبك فتجده مُنْشغلاً عنك تقول : كأنك لست معنا . لماذا ؟ لأن جارحة من جوارحه شردتْ ، فشغلتْه عن السماع[1] .

وقوله تعالى : ﴿ **لِمَا يُوحَىٰ** ⑬ ﴾ [طه] الوحى عموماً : إعلام بخفاء من أىٍّ لأىٍّ فى أىٍّ ، خيراً كان أم شراً ، أمّا الوحى الشرعى فهو : إعلام من الله إلى رسول أرسله بمنهج خَيْر للعباد ، فإنْ كان الوحى من الله إلى أم موسى مثلاً ، أو إلى الحواريين فليس هذا من الوحى الشرعى . وهكذا تحدَّدَتْ من أىٍّ لأىٍّ فى أىٍّ .

لكن ، كيف ينزل الوحى من الله تعالى على الرسول ؟ كيف تلتقى الألوهية فى عُلُوِّها بالبشرية فى دُنوها ؟ إذن : لا بُدَّ من واسطة ؛ لذلك قال تعالى : ﴿ **اللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ..** ⑦⑤ ﴾ [الحج]

(١) قال سفيان بن عيينة : أول العلم الاستماع ، ثم الفهم ، ثم الحفظ ، ثم العمل ، ثم النشر ، فإذا استمع العبد إلى كتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ بنية صادقة على ما يحب الله أفهمه كما يحب ، وجعل له فى قلبه نوراً . ذكره القرطبى فى تفسيره (٤٢٤٨/٦) .

فالمصطفى من الملائكة يتقبَّل من الله ، ويعطى للمصطفى من البشر ؛ لأن الأعلى لا يمكن أنْ يلتقى بالأدنى مباشرة :﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ .. (٥١) ﴾ [الشورى]

فاستعداد الإنسان وطبيعته لا تُؤهّله لهذا اللقاء ، كيف ولما تجلَّى الحق - سبحانه - للجبل جعله دكّاً ، ومن عظمته سبحانه أننا لا نراه ولا نتكلم معه مباشرة ، ولا نُحسّه بأىّ حاسة من حواسنا ، ولو حُسَّ الإله بأىِّ حاسة ما استحق أنْ يكونَ إلهاً .

وكيف يُحَسُّ الحق - تبارك وتعالى - ومن خَلْقه وصَنْعته مَا لا يُحَسُّ ، كالروح مثلاً ؟ فنحن لا نعلم كُنْهها ، ولا أين هى ، ولا نُحسّها بأىِّ حاسّة من حواسنا ، فإذا كانت الروح المخلوقة لم نستطع أنْ ندركها ، فكيف ندرك خالقها ؟

الحق الذى يدَّعيه الناس ويتمسَّحون فيه ، ويفخر كل منهم أنه يقول كلمة الحق ، وكذلك العدل وغيرها من المعانى : أتدركها ، أتعرف لها شكلاً ؟ فكيف - إذن - تطمع فى أنْ تدرك الخالق عز وجل ؟

إذن : من عظمته سبحانه أنه لا تدركه الحواس ، ولا يلتقى بالخَلْق لقاءً مباشراً ، فالمصطفى من الملائكة يأخذ عن الله ، ويعطى للمصطفى من الخَلْق ، ثم المصطفى من الخَلْق يعطى للخَلْق ، ومع ذلك كان ﷺ يجهد ، ويتصبَّب جبينه عَرَقاً فى أول الوحى .

ولذلك شاء الحق سبحانه أنْ يحجبَ الوحى عن رسوله فترة ليستريح من مباشرة المَلَك له ، وبانقطاع الوحى تبقى لرسول الله